

# جهاد الأسطول الإسلامي في حوض البحر المتوسط على عهد معاوية ابن أبي سفيان

د: توفيق مزارى عبد الصمد  
أستاذ محاضر - كلية العلوم الإسلامية  
جامعة الجزائر (1)



## مقدمة :

إن العامل الأساسي و المباشر لاهتمام العرب المسلمين بالبحرية، هو حركة الفتوح ولاسيما في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث عرفت جيوش الفتح نوعا من الاستقرار في المناطق المفتوحة. وكان المسلمون قبل أن يتطلعوا إلى المزيد من التوسع يهتمون كثيرا بتنظيم الدفاع عن الأقاليم المفتوحة.<sup>(1)</sup>

و إذا كان التوسع الإسلامي في الجبهة الشرقية، في العراق وبلاد فارس قد حسم لصالح المسلمين بالجيوش البرية في معركتي القادسية (16هـ / 637م)<sup>(2)</sup> و نهاوند (21هـ / 642م)، فإن الجبهة الغربية مع الروم البيزنطيين لم تكن كذلك. فرغم الانتصار الهائل الذي حققه الجيش الإسلامي في معركة اليرموك (13هـ / 634م) والذي فتح أمامهم الشام كله وأصبحوا قاب قوسين وأدنى من تخوم بلاد الروم في آسيا الصغرى، فقد استمر نضالهم البحري مع البيزنطيين رغم توسعاتهم البرية في الشام والمغرب ما يقرب من أربعة قرون.<sup>(3)</sup>

ونفس المصاعب واجهها الوجود الإسلامي في مصر بسبب غياب سياسة بحرية، سواء أثناء فتحها أو بعد الاستقرار فيها، حيث كان عمرو بن العاص يتحاشى الموانئ



المصرية التي تقع على ساحل بحر الروم، لأن الروم أدركوا أهميتها في الدفاع عن مصر فحصنوها وشحنوها بالحاميات العسكرية<sup>(4)</sup>. ولذا اتخذ ابن العاص القسطنطينية عاصمة لمصر<sup>(5)</sup> لتكون بعيدة عن الساحل والتهديدات البيزنطية البحرية، وبذلك فقدت الإسكندرية أهميتها السياسية لأنها لم تعد عاصمة البلاد المصرية. وبعد أن كانت همزة الوصل مع بلاد الروم أصبحت نقطة الفصل وموقعا يمكن أن يطرقها الروم بأساطيلهم.

ومهما يكن فإنه لما فتح المسلمون الشام ومصر وأشرفوا على سواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط، أحس ولاية هذه الأقاليم بضرورة اصطناع سياسة بحرية وإنشاء الأساطيل للاستمرار في عملية الفتح، والاستقرار في التخوم الساحلية على الأقل. لكن الخليفة عمر بن الخطاب رأى أن العرب في هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجارة الروم والفرس في البحر لقلة خبراتهم البحرية فمنعهم<sup>(6)</sup>.

وكان أول من حاول ركوب البحر "العلاء الحضرمي" والي البحرين سنة 17 هـ، إذ توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألف من المسلمين من غير إذن الخليفة<sup>(7)</sup>. وكان عمر - رضي الله عنه - قد نهاه كما نهى غيره عن الغزو في البحر، إتباعا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر وخوف الغرر<sup>(8)</sup>. ولكن العلاء ندب الناس إلى فارس فأجابوه، وفرقهم أجنادا على أحدها "الجارود بن المعلي"، وعلى الآخر "سوار بن همام"، وعلى آخر "خليد بن المنذر بن ساوي". وعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى اصطخر ولبزائهم أهل فارس وعليهم الهربذ<sup>(9)</sup>، فحالت الفرس بين المسلمين وسفنهم عندما أرادوا العودة إلى البصرة.

ولما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل إل "عتبة بن غزوان" يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، فأرسل اثني عشر ألف مقاتل فاستطاع إنقاذ الموقف.



واشتد عمر على العلاء وكتب إليه يعزله ، وأمره بأثقل الأشياء عليه من تأمير سعد بن أبي الوقاص عليه ، فشخص العلاء إلى سعد بمن معه تأديبا له.<sup>(10)</sup>

ومهما يكن فإن العلاء يعد أول من حاول من المسلمين ركوب البحر واكتشاف أغواره كمقدمة لإيجاد قوة بحرية إسلامية رغم إخفاقه. ولهذا اشتد عمر بن الخطاب في كبح جماح المغامرين المسلمين في ركوب البحر، كما فعل بعرفة بن هزيمة الأزدي سيد بجيلة لما أغراه عمان، فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعنفه ، وزاد إدراك عمر لتخلف المسلمين البحري نتيجة لإخفاق علقمة محرز المدلجي في حملته البحرية إلى الحبشة سنة 20هـ، إذ عرقت سفنه في البحر، فكان لذلك أثر عميق في نفس الخليفة<sup>(11)</sup>.

## 1- الشام وإرهاصات التأسيس:

غير أن أول بادرة جادة لاصطناع سياسة بحرية وتكوين أسطول إسلامي، قام بها والي الشام "معاوية بن أبي سفيان" الذي أدرك بثاقب نظره أنها المقوم الأساسي لبقاء المسلمين في حوض البحر المتوسط، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله .

فالبحر الأبيض المتوسط ونظرا لما يتمتع به من أهمية اقتصادية وإستراتيجية يعتبر منذ أقدم العصور منطقة صراع، وكان إبقاء القوة الفائزة فيه رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما له من مضائق ومراكز جيواستراتيجية<sup>(12)</sup>. والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدو فيه كما يقول ابن خلدون ((يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار... فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، كان أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن))<sup>(13)</sup>.

غير أن معاوية أراد أن يضع سياسة بحرية تنبني على خطة سليمة بعيدة المدى، واضحة المعالم والأهداف، تحض بدعم الخليفة لتبقى مرسومة لسلفه. سياسة بحرية



تكون ثمرة تفكير صحيح وتيد، ولا تكون مغامرة من وحي التسرع والارتجال فتؤول إلى الفشل، خاصة وأن التجارب السالفة دون شك لا تزال ماثلة في الأذهان.

افتتح معاوية برنامج البحر، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص<sup>(14)</sup>، مبينا له أهمية السيطرة عليها اتقاء لخطورة هذا المعقل وقرب من فيه من الروم الأعداء من مدن الشام بقوله ((إن قرية من قرى حمص، ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم))<sup>(15)</sup> وختم خطابه بقوله ((وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص))<sup>(16)</sup> حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر.

ولم يشأ عمر بن الخطاب أن يسمح لمعاوية بما أراد، قبل أن يستطلع الأوضاع ويلم بقدر كاف من المعلومات عن الملاحاة في البحر حتى لا يغامر في الأمور التي تتعلق بسلامة جند المسلمين، فأرسل إلى عمرو بن العاص واليه على مصر يطلب منه: ((صف لي البحر وراكبه فأني نفسي تنازعني إليه)). لأن ولاية مصر تقع على شواطئ البحر المتوسط مثل بلاد الشام، وهي كذلك عرضة لأخطار الإغارة البحرية البيزنطية.

وجاء رد عمرو ابن العاص يصف البحر وما يلاقه المرء من أخطار فيه بقوله: ((إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء إن ركذ خرق القلوب، وإن تحرك أزاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، وهم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق))<sup>(17)</sup>. فكانت هذه العبارات كافية لتجعل عمر يرفض طلب معاوية مؤثرا التريث لعدم الحاجة الملحة لدخول ميدان المغامرات البحرية حفاظا منه على سلامة المسلمين. وكتب إلى معاوية: ((والذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر المستعصب، وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم))<sup>(18)</sup>.



ومهما كان تعليل الرواة والإخباريين رد عمر الرافض ركوب البحر في هذه المرحلة، وإصراره على إقامة الأمصار الإسلامية بعيدة عن السواحل حرصاً على حمايتها من الغارات البحرية البيزنطية كما قال صاحب الخطط.<sup>(19)</sup> أرى أن الموقف العمري كان مرحلياً في أساسه، فقد كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لدخول ميدان النشاط البحري ولم ينبع عن موقف شرعي أو شخصي، بقدر ما كان إستراتيجياً يقدر الأمور على قدرها وينفذها حينها يحين حينها. لأن عمر لا يريد أن يفتح المسلمون إقليماً أو مصراً دون أن تكون لهم إمكانية الاستقرار فيه فخطة الفتح في هذه المرحلة كما بينها البلاذري هي أن المسلمين: "كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند الساحل، رتبوا فيها قدر ما تحتاج من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد."<sup>(20)</sup>

وإذا كان الخليفة عمر بن الخطاب بعيد النظر لأن العرب حديثي عهد بالبحر، فلم يكن معاوية بالوالي الذي يغض الطرف عما يهدد سواحل الشام من مخاطر، فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هي عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية<sup>(21)</sup>. فكتب إليه الخليفة عمر يطلق يده لإصلاح السواحل بما يراه كفيلاً لسلامتها من (( مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على منازرها واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر)).<sup>(22)</sup>

ولم يتأخر معاوية في استغلال هذه الفرصة للاهتمام بتحصين السواحل، وتشجيع الناس على الانتقال إليها من كل ناحية. خاصة وأنه كان لا يثق في المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة، مما حمله على إبدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب أو من المواليين لهم.<sup>(23)</sup>

وقام معاوية أيام ولايته على الشام بأعمال تدرجية بعيدة عن المغامرة والاندفاع، جعل من خلالها مدن سواحل الشام مبنوثة بالقلاع والأبراج، فكانت لها مناعة من



مخاطر البحر. ووضع لهذه المدن ما يعرف بنظام الرباط،<sup>(24)</sup> الذي ارتبط أشد الارتباط بالجهاد المقدس، فاجتذب إليه الأتقياء والمتحمسين.<sup>(25)</sup>

وكان المراقبة يربطون أثناء الصيف عندما يصبح البحر صالحا للملاحة، أما في فصل الشتاء وفيه ينغلق البحر بسبب العواصف والأنواء، فكانت الحاميات تعود إلى قواعدها في دمشق أو الفسطاط، ولا يبقى منها في الثغور والسواحل إلا جماعات يسيرة.<sup>(26)</sup>

يرى إبراهيم أحمد العدوي أن معاوية قد استعار هذا النظام من البيزنطيين، الذين عرفوا نظام الأديرة المسلحة وهي الأماكن التي انقطع فيها الرهبان للعبادة.<sup>(27)</sup> فاقتبسه وأدخل عليه تغييرات جذرية حتى أصبح صالحا لتنفيذ مشاريعه.

لكن الرباط الإسلامي اختلف عنها، باعتباره مقرا للعبادة يأويه المتدينون والمتسكون، ومركزا عسكريا يفد إليه المغامرون الراغبون في الجهاد والاستشهاد. وقد امتدت هذه الربط والمحارس على طول السواحل الشامية والمصرية. فحضيت بذلك سواحل الإسكندرية ورشيد والبرلس وتينس ودمياط وعكا وصور وصيدا وطرابلس وعرة وجبيل وإنطاكية، حيث وضعت في هذه المدن حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أي مجموعات، وكل عرافة تتألف من مائة رجل.

وكانت هذه الربط إرهابا أوليا لاصطناع سياسة بحرية، فقد أعد معاوية الربط لتكون حصونا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لغارات الأساطيل البيزنطية بالوسائل البرية. ولعل الاحتكاك الحربي بين الجيش الإسلامي المربط وغيره من الجند البحري، كان من شأنه أن ينمي ولو تدريجيا الرغبة لدى المسلمين وقادتهم في امتلاك الوسائل البحرية، حيث أصبحت الأعمال الثغرية في الربط البحرية ضمن التعبئة العسكرية.<sup>(28)</sup> فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرج المراقبة، ومع تطور المواجهة العسكرية، ازدادت أهمية الربط بحيث تحول إلى قاعدة للهجوم ومواجهة الأسطول البيزنطي على الأقل قبل وصوله الساحل تجنباً لعنصر المباغته. ذلك لأن الدفاع عن السواحل بوسائل برية وعدم وجود أسطول



إسلامي، كان يشجع القوى البحرية البيزنطية في تجديد محاولاتها لاستيراد الشام ومصر على الخصوص.

ويبدو أن ساسة بيزنطة كانوا يراقبون الوضع عن كثب، ويتخوفون من دخول المسلمين ميدان الصراع البحري، بدليل أن إمبراطور الروم أراد تامين الموقف العمري لما منع معاوية ركوب البحر، فترك الغزو وكاتب عمر وقاربه.<sup>(29)</sup>

عندما اغتيل عمر بن الخطاب سنة 23 هـ / 644 م، حاولت بيزنطة استيراد الشام لكن معاوية والي الشام تصد لها وهزمها.<sup>(30)</sup> كما عانت الموانئ الشمالية لمصر معاناة كبيرة من الغارات البيزنطية التي أرادت استعادة مصر لسلطانها.

و كانت أهم تلك المحاولات في أوائل سنة 25 هـ، حيث تغيرت الظروف السياسية في كل من مصر والدولة البيزنطية. فقد عزل الخليفة عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر، وولاه "عبد الله بن سعد بن أبي سرح"، على حين تولى ملك الدولة البيزنطية الإمبراطور "قسطنطين الثالث"<sup>(31)</sup> (641-668 م) - أطلق عليه الناس اسم قسطنز وهو مصغر قسطنطين - الذي عزم على استعادة الإسكندرية واتخاذها قاعدة لاسترداد مصر.<sup>(32)</sup> وانتهاز ظروف الدولة الإسلامية الداخلية، فوجه أسطولاً ضخماً مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد بقيادة قائده "مانويل" الذي سبق له أن دافع عن الإسكندرية حينما حاصرها المسلمون. جاءت الحملة سنة 25 هـ / 645 م على حين فجأة للمسلمين في مصر، فاستسلمت الإسكندرية واتخذها "مانويل" قاعدة للتوغل في داخل البلاد.<sup>(33)</sup> فما كان على الخليفة عثمان إلا أن أعاد عمرو بن العاص إلى قيادة الجيش في مصر، فتمكن بمهارته ودهائه أن يستعيد المدينة سنة 25 هـ / 646 م.



### 3- دور معاوية في اصطناع سياسية بحرية:

ورغم نجاح المسلمين في الدفاع عن سواحل مصر و الشام بوسائل برية، إلا أن الوضع كان لا بد أن يتغير ويتطور إلى أحسن وسيلة للدفاع وهي الهجوم بعدما أصبحت الظروف موالية والإرادة السياسية متوفرة.<sup>(34)</sup>

فقد استقر الوضع لمعاوية بن أبي سفيان، ورسخت أقدام المسلمين في الشام و بلاد الجزيرة، وبفضل حملاته الشواتي والصوائف على التخوم البيزنطية، تطلع المسلمون على أرمينية وآسيا الصغرى ووصلوا خلالها إلى البحر الأسود.<sup>(35)</sup> يذكر "الطبري" أن معاوية غزا قبادوقيا واستولى على قيصرية ومن ثم تحول إلى قريشيا وعلى الرغم أنه لم ينجح في الاستيلاء على عمورية لمناعتها، فإنه توغل في الجهات الغنية، وعاد إلى دمشق محملاً بالغنائم والأسرى.<sup>(36)</sup>

ومن جهة أخرى فقد أصبحت الإمكانيات المالية متوفرة للشروع في إنجاز الأسطول الإسلامي، نظراً لما عرفته الدولة من توسع ورخاء اقتصادي في عهد الخليفة عثمان.<sup>(37)</sup> مما دفع معاوية بن أبي سفيان والي الشام إعادة إخراج مشروعه البحري إلى النور<sup>(38)</sup>، فطلب من الخليفة الجديد أن يوافق على غزو الروم بحراً، فأذن له على أن لا يحمل أحداً على ركوب البحر كرهاً، وبأن تكون الخدمة البحرية عن طريق التطوع والاختيار،<sup>(39)</sup> وأن يصحب معه امرأته "فاخته". كما ذكر البلاذري: ((فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونا وإلا فلا))<sup>(40)</sup> ولعل القصد من ذلك ليضمن صدق عزمته في الإغارة على جزيرة قبرص، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره في خطابه.

ولما كان العرب قليلي الخبرة في الملاحة، فقد استخدم معاوية أولاً من كان بحوزته من أهل الصناعة والنواتية القاطنين بالسواحل الشامية.<sup>(41)</sup> ولهذا كان



ملاحو السفن في بداية الأمر غالبا من أهل الشام البيزنطية قديما، سكان الشاطئ الفينيقي ومن الأقباط . أما المحاربون الذين حملتهم السفن فكان معظمهم من العرب المسلمين الذين ينالون العطاء.<sup>(42)</sup>

و في نفس الوقت الذي بدأ فيه معاوية بإنشاء أسطول شامي، كان عبد الله بن سعد والي مصر يقوم بإنشاء أسطول عربي مصري، ألقى عبئه على كاهل أهل الخبرة من المصريين الأقباط،<sup>(43)</sup> وخاصة من سكان الإسكندرية، حيث كانت توجد بمصر دور لصناعة السفن ومنها تخرج الأساطيل إلى قواعد الشام البحرية.<sup>(44)</sup>

وحرص معاوية منذ بداية نشاطه على تحقيق التعاون البحري بين مصر والشام، لأن التقسيم الإداري للدولة البيزنطية كان يجمع بينهما في ميدان النشاط البحري قبل ظهور الإسلام. إضافة إلى العوامل الطبيعية التي ربطت بين الإقليمين في الشؤون البحرية. فمصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن، على حين تكثر بالشام غابات الأرز ولاسيما بجبال لبنان<sup>(45)</sup> والتي كانت تقوم عليها صناعة السفن بمصر. وعلى هذا الأساس جرى النظام البحري فكانت تتجمع السفن الإسلامية بموانئ الشام للقيام بالجهاد البحري وغزو الأراضي البيزنطية.

### سياسة معاوية البحرية:

والملاحظ من سياسة معاوية ونشاطه البحري، أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على القسطنطينية. ولعله كان يتمثل حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (( لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش )) ويدل على ذلك حرصه على تأمين الطريق إليها بالاستيلاء على قبرص ورودس وكوس.

استهل معاوية نشاطه البحري بغزوات استطلاعية لجزيرة قبرص بسبب موقعها الجغرافي الهام بالنسبة للشام ومصر على حد سواء، إذ يمكن للمرء منها أن يرى



بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام، كما أن طرفها الشرقي قريب من خليج الإسكندرية. وكان البيزنطيون يتخذونها محطة تموين في البحر المتوسط، ونقطة ارتكاز يلتجئون إليها في حالة الهجوم والانسحاب.<sup>(46)</sup>

وأبحر الأسطول الإسلامي من ميناء عكا، وكانت السفن جميعها من مصر، و اشترك مع الجند كبار من رجال الشام و جماعة من الصحابة،<sup>(47)</sup> مسجلا بذلك أول عبور إسلامي لمياه البحر المتوسط بعد انتهاء شتاء (28هـ / 649م). واستعمل معاوية على البحر "عبد الله بن قيس الجاسي" حليف بني فزارة، وسار إليها من الشام وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها.<sup>(48)</sup>

و تمكن هذا الجند من اقتحام عاصمة قبرص قسطنطينية Constantin و اضطر أركون المدينة إلى عقد صلح مع المسلمين الذي بينت شروطه العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة، ذكرها بن الأثير بقوله ((... فصالحهم لأهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك. وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم، وعليهم أن يؤذنون المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى عدوهم عليهم))<sup>(49)</sup>

لكن أهالي قبرص أخلّوا بشروط الصلح عندما أمدوا البيزنطيين ببعض السفن في إغارتهم على السواحل الإسلامية سنة (32هـ / 652م)، فقرر معاوية إدخالها ضمن الدائرة الإسلامية، و جهز إليها حملة بحرية ثانية عام (33هـ / 654م) مكونة من عدد كبير من الجند على ظهر خمسمائة سفينة. وتمكن هذه المرة من فتحها عنوة رغم مقاومة أهلها، وأقام بها حامية عسكرية من اثني عشر ألف من الجند النظامي، ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك حيث أغراهم باستيطانها بمنحهم الرواتب ليشد أزر الحامية الإسلامية.



وشيد معاوية لهذه الجالية الإسلامية حاضرة جديدة ومسجدا يؤدون فيه شعائرهم الدينية،<sup>(50)</sup> فكانت بذلك قبرص هي باكورة الفتح الإسلامي في البحر المتوسط، وأول مركز عسكري بحري يحمي السواحل الإسلامية من الحملات البيزنطية المفاجئة. وقد شجعهم هذا الإنجاز وفتح لهم شهية ركوب البحر وتقوية الأسطول، فنظم معاوية غزوات دورية على التخوم البحرية البيزنطية، حتى كان له غزوتان في السنة، عرفت باسم الشواقي والصوائف البحرية.

وسارت الغارات الإسلامية وفق خطة منظمة ومرسومة للسيطرة على الجزر البيزنطية، لاسيما التي تتحكم في أكبر عدد من المضائق البحرية، بهدف شل حركة الأسطول البيزنطي ودرء لخطره المباغت. ويبدو أن أمراء الأساطيل الإسلامية أظهروا منذ البداية مهارة وجلدا رفعهم إلى مصاف رجال البحار الذين عرفهم التاريخ فاثبتوا في مرحلة مبكرة القدرة على فهم جيد لطبيعة الجزر البيزنطية في حوض المتوسط.

و كانت جزيرة أرواد<sup>(51)</sup> من ساحل الشام بين مدينتي جبلة وطرابلس تسترعي نظر معاوية لما تتمتع به من موقع استراتيجي قريب من الساحل الإسلامي يجعلها يجلها معقلا خطيرا عليه من أية قوة مناوئة قد تسيطر عليه، كما أنها معبر هام في الميدان التجاري.

و حاول معاوية فتحها صلحا بواسطة أحد أساقفتها يدعى "ثورماريش" *Thormarichos*، لكن أهالي أرواد عاندوا وكابروا، فجهز المسلمون إليها حملة بحرية في العام التالي من جزيرة قبرص، وتمكنوا من دخول المدينة واهرقوا عاصمتها، وألزموا جميع أهاليها بإخلائها تماما جزاء عنادهم.

يقول العدوي في ذلك: "ولم يكن في هذا التصرف الذي اتخذته المسلمون شيء من التعسف، وإنما جاء وليد بعد نظرهم، وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ووسائلهم التي اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم، فكان أهالي أرواد يتجنبون دائما



الهزائم الفاصلة، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيط بهم. ولذا قضى المسلمون نهائيا على هذه الجزيرة ومنعتها، وأمنوا ما قد يحيش بنفوس أهلها من عدوان .." (52)

واعتقد أن هذا فيه شيء من المبالغة، لأن المسلمين في تاريخ فتوحهم دأبوا على الاستفادة من سكان المناطق المفتوحة، فلا يعقل أن يتخلصوا من أهالي أرواد دون الاستفادة من خبراتهم البحرية مثلما أفادوا من سكان سواحل الشام وأقباط مصر.

وبعد أرواد اتجه الأسطول الإسلامي إلى جزيرة رودس *Rhodes*، (53) باعتبارها أهم جزر بحر إيجه وأول حلقة في سلسلة أرخبيله من ناحية الشرق، وكان البيزنطيون قد اهتموا بها وأقاموا فيها صناعة السفن، واتخذوا منها معقلا قريبا للإغارة على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية. وقد حققت الحملة التي أرسلها معاوية إلى رودس سنة (33هـ / 654م) (54) بقيادة "جنادة بن أبي أمية" انتصارا هاما، فاستولى عليها عنوة وألقى الأسطول الرعب في قلوب أهلها (55).

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة الاقتصادية والإستراتيجية، فبنى فيها حصنا و أسس رباطا للمسلمين يدافعون منه عن الشام (56). وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدى طويلا ليبقي على بأس الحامية وقوتها، كما أرسل إليها فقيها يدعى "مجاهد بن جبير" يقرئ الناس القرآن (57)، وكل ذلك تجديدا للعزائم وتقوية للروح الإسلامية والتواجد الإسلامي بالجزيرة. وكان كل ذلك من شأنه أن يخرج الوجود البيزنطي في حوض المتوسط، حتى كاد استيلاء المسلمين على جزيرتي قبرص وروُدس أن يمزق شمل النظام البحري البيزنطي. (58)

وبعد ذلك أراد معاوية التوغل أكثر في مياه بحر إيجه لتأمين طريقه إلى القسطنطينية، فوجه حملة بقيادة جنادة بن أمية إلى جزيرة اقريطش (كريت) التي



تتحكم بموقعها الهام في المدخل الجنوبي لبحر إيجه، و أراد معاوية سد المنافذ الرسمية لهذا البحر في وجه السفن البيزنطية، مستغلا فساد الأحوال في العاصمة البيزنطية و ما نتج عنه من تشتت التعاون بين الأسطوليين البيزنطيين.<sup>(59)</sup>

ورغم أن الحملة فشلت في السيطرة على الجزيرة، واكتفى جنادة بالإغارة عليها وإغلاق الوجود الرومي والبطش بأساطيلهم التي اعترضته. لكن هذه المحاولة كانت لها أهمية استطلاعية ناجحة في فحص المنافذ البحرية التي يمكن التسرب منها للقيام بحملة كبيرة إلى العاصمة البيزنطية، وهو الهدف الاستراتيجي بعيد المدى لدى المسلمين .

وقد بدأ التحضير الفعلي لغزو القسطنطينية سنة ( 34هـ / 655م)، حيث أراد المسلمون اجتياحها برا وبحرا<sup>(60)</sup> باعتبارها المصدر الذي يقلق الوجود الإسلامي في حوض المتوسط، والمحرك الأساسي الذي أدار شؤون الدفاع البحري عن جزر البحر المتوسط، وغيرها من البلاد التي عرقلت حركة الفتوح الإسلامية واستقرارها . ولا يمكن التخلص من هذه الأفعى السامة إلا باستئصال رأسها والاستيلاء عليها، كما تم من قبل بالاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس . واتخذ معاوية طرابلس الشام مركزا حشد فيه معداته البحرية، على حين وصلت سفن مصر إلى سواحل الشام وزحفت كلها صوب القسطنطينية. وفي نفس الوقت عبأ القوات البرية بدمشق لسير عبر آسيا الصغرى.<sup>(61)</sup>

#### 4- رد الفعل البحري البيزنطي ومعركة ذات السوارى 34هـ:

في هذه الفترة كانت بيزنطة تعرف إصلاحات بحرية على عهد قسطنز الثاني حفيد هرقل، الذي ما كاد ينفرد بالحكم وبلغ سن الرشد حتى أقبل على تنشيط الأسطول البيزنطي المركزي من العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات وعرقلة حركة البحرية الإسلامية.<sup>(62)</sup>



ويبدو أن الإمبراطور أراد مباغته الأساطيل الإسلامية فيتعمد إلى تدميرها قبل إبحارها من سواحل الشام، فهو يهدف إلى إدارة المعركة بعيداً عن القسطنطينية، حتى يجند أكبر قدر من أساطيل الولايات التابعة للروم. وبذلك مهما كانت نتائج الصدام البحري مع الأسطول الإسلامي، يكون قد أفسد خطة معاوية في الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على البيزنطيين. ففي حالة الهزيمة يمكنه أن يتنازل على كثير من المواقع البيزنطية في البحر المتوسط ويحتفظ بالعاصمة البيزنطية، أما في حالة النصر فإنه يكرس السيادة البيزنطية على البحر المتوسط، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من السواحل الإسلامية التي لا يزال حلم بيزنطة القديم يراوده في استعادتها.

وجند قسطنز كما ذكر الطبري أسطولا ما لم يجتمع للروم منذ كان الإسلام، يتألف من خمسمائة مركب أو ستمائة<sup>(63)</sup> مزودة بالآلات الحرب راع منظرها المسلمين، مما يبين عزم قسطنز على وضع حد للنشاط الإسلامي في المتوسط. في حين دلت الجهود التي بذلها معاوية في إعداد الأساطيل على صدق عزيمة المسلمين في الجهاد وتلقين البيزنطيين ضربة قاسمة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد السفن الإسلامية بلغت مائتي سفينة<sup>(64)</sup> ولكن اعتقد أن عددها كان أكثر من ذلك نظرا لحجم المعركة وما تحتاجه من تغطية عسكرية في البحر.

وسار معاوية على رأس قواته البرية (عام 34هـ/ 655م) إلى مدينة قيصرية في قبادونيا بآسيا الصغرى. وفي البحر ظهر الارتباط الوثيق بين الأسطول الشامي وأسطول مصر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح. وألقى الأسطول الإسلامي مرساه من ساحل الليقياني (ليكيّا) عند ساحل فوينكس *Phoenix*، حيث بلغه هناك نبأ اقتراب الأسطول البيزنطي بقيادة الإمبراطور نفسه.



وعلى ساحل ليكيا بآسيا الصغرى وقعت المعركة البحرية التي وصفها ابن الأثير بقوله: ((وكانت الرياح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسل المسلمون والروم وسكنت الرياح، فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر، وقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم مالا يحصى، وصبروا يومئذ صبرا لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم إلا الشريد)).<sup>(65)</sup> وكاد المسلمون يظفرون برأس الإمبراطور نفسه لولا أنه تنكر بزي أحد ضاربي الطبول وهرب من المعركة على ظهر مركب اتجه به إلى صقلية.<sup>(66)</sup>

وبهذا أحرز الأسطول الإسلامي انتصار حاسما في أول معركة بحرية، التي وردت في المصادر العربية باسم "غزوة ذات الصواري" سنة (34هـ / 655م)<sup>(67)</sup>. وترتب عنها فرض السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط، حيث صار يسمى بحر المسلمين بعدما كان يدعى بحر الروم، كما مهدت الطريق لنمو البحرية الإسلامية، وفي ذلك يقول فتحي عثمان: "عن معركة ذات الصواري تعتبر حدا فاصلا في تاريخ البحر المتوسط، ذلك أن قسطنطين كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها، لو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض وحوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين".<sup>(68)</sup>

تخلى الإمبراطور قسطنطين ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التي استولوا عليها في شرق البحر المتوسط، وأيقنوا أن قدم المسلمين قد رسخت على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، فجنحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع للدفاع عن قواعدهم المتقدمة أو عاصمتهم.<sup>(69)</sup>، وادخار جهودهم وقواتهم إلى مرحلة قادمة يحتاجون إليها.



غير أن معاوية لم يستطع استئثار هذا الانتصار ليحقق تقدما بحريا جديدا، بسبب ما وقع بين المسلمين من فتن. ففي السنوات الأخيرة من خلافة عثمان - رضي الله عنه - انعكست الدولة الإسلامية على مشاكلها الداخلية، ولم تلبث أن زادت بعد مقتل عثمان سنة (35هـ / 656م). فانشغل معاوية بالمطالبة بدم عثمان ومناوأة علي بن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة، فنشبت الحرب الأهلية بين معاوية الذي نادى بنفسه خليفة بدمشق، وبين علي الذي ولي الخلافة بالمدينة ثم الكوفة<sup>(70)</sup>. وهذا النزاع عطل الجبهة البرية والبحرية ضد البيزنطيين، فسحب معاوية معظم قواته منها لتشد أزره في حربه مع علي بن أبي طالب، وسامو البيزنطيين في عقد صلح سنة (39هـ / 659م)، والتزم أن يدفع لهم إتاوة أو جزية، وبذلك لم يتعرض معاوية لخطر البيزنطيين.

وكان البيزنطيون أيضا بحاجة إلى هذه الهدنة التي استغلها قسطنطين لتوجيه اهتمامه إلى أملاكه في أوربا، وتصفية حساباته مع الصقالبة في منطقة البلقان، ثم انتقل إلى صقلية ليقوي جبهته ضد أي زحف إسلامي قد ينطلق من مصر.

وهكذا توقف نشاط الأسطول الإسلامي بسبب ظروف الفتنة، ومع نهاية الحكم الراشدي كان العرب المسلمين قد دخلوا مجال الصراع البحري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وبفضل الجهود التي بذلها معاوية أصبحت لهم تجربة كافية، وسياسة بحرية مرسومة تحتاج إلى استقرار أوضاع الدولة الإسلامية والعزيمة القوية لإتمام إنجازها.

### دور البحرية الإسلامية في العهد الأموي:

بعد قيام الدولة الأموية، وإعلان معاوية خليفة للمسلمين سنة 41هـ، اشتد الصراع الأموي البيزنطي في حوض المتوسط الشرقي ودخل مرحلة جديدة.<sup>(71)</sup> كما استمرت الحروب عند الثغور دون انقطاع تقريبا طوال قرون<sup>(72)</sup>. حتى أن الدارس للعلاقات الأموية البيزنطية، يجد في مصادر العصور الوسطى لهذه الفترة سجلا لا



يكاد يتعدى أخبار الحروب المتواصلة برا وبحرا يضعف عن جمعها وتصنيفها، في حين لا توجد إلا إشارات طفيفة عن العلاقات السلمية باستثناء شؤون المهادنات والسفارات.

كانت سنة (49هـ / 669م) بداية عهد جديد للبحرية الأموية، نتيجة تجدد المخاطر البيزنطية على السواحل الإسلامية، ففي هذه السنة شن البيزنطيون غارة غاشمة على سواحل الشام، وكان الهجوم من الشدة أن سبب خسائر كبيرة للمسلمين جعلت معاوية يقرر إنشاء دورا لصناعة السفن بالشام نفسها،<sup>(73)</sup> إلى جانب دور صناعة مصر. فأمر بجمع الصناع والتجارين وإرسالهم إلى عكا التي وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام، نظرا لقربها من أخشاب لبنان المشهورة في صناعة المجاديف<sup>(74)</sup>. وظلت عكا دار صناعة في الشام إلى أن نقلت زمن بني مروان إلى صور.<sup>(75)</sup>

ولم يكن هدف معاوية من ذلك، هو فصل التعاون البحري بين مصر والشام الذي ظل قائما، وإنما كان يريد من ذلك إيجاد أساطيل دائمة بموانئ الشام على استعداد لأي هجوم مفاجئ، وليخفف العبء عن أساطيل مصر، لأن قسم كبير من بحارة السفن المصرية كانت تحارب إلى جانب أهل الشام، وتعود إلى وطنها بعد انتهاء الحملات البحرية.<sup>(76)</sup>

بدأ معاوية نشاطه العسكري بإعادة نظام الشواقي والصوائف، لتضييق الخناق على الدولة البيزنطية، وإغلاق مضاجعها في آسيا الصغرى لحماية لأطراف الشام الشمالية وتحصينا لمدنه الساحلية. وذلك ما يسمح للأسطول الإسلامي أن ينشط في مياه البحر المتوسط بنوع من الحرية، ويمهد الطريق للوصول إلى بيزنطة وقاعدتها الحصينة القسطنطينية سنة (49هـ / 668م).



مهد معاوية لهذا المشروع بإرسال حملة استطلاعية بقيادة "فضالة بن عبيد الأنصاري" إلى مدينة خلقدونية الواقعة على ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي، ولم يكن المقصود من هذه الحملة إلا اختبار مراكز الدفاع في الجهات المحيطة بالعاصمة.<sup>(77)</sup>

وتمكن فضالة من دخول تلك المدينة، وأقام بها بسبب حلول الشتاء وشدة البرودة، ينتظر المدد من دمشق حتى سنة (50هـ / 669م). ولم يتأخر معاوية في إعداد القوات الإسلامية وجعل على رأسها ابنه "يزيد" (78)، وضم إليه شخصية أبي أيوب الأنصاري وهو من كبار الصحابة لاكساب الحملة طابع الجهاد المقدس.

ولما وصلت الإمدادات عبرت القوات الإسلامية مجتمعة المضيق إلى الشاطئ الأوربي، وضربت حصارا على أسوار القسطنطينية. امتاز بصبر المسلمين وجلدهم في التضيق على سكان العاصمة، واستشهد العديد من المسلمين تحت أسوار القسطنطينية، ومنهم "أبي أيوب الأنصاري".<sup>(79)</sup>

ورغم أن الحملة عادت إلى دمشق في صيف (50هـ / 669م) دون التمكن من فتح العاصمة البيزنطية، إلا أنها ولأول مرة سمحت لجند إسلامي التوغل في عمق الأراضي البيزنطية ومشاهدة أسوار القسطنطينية، ومحاولة دك حصونها وإحداث ثغرات فيها. كما أثبت للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام وأسطوله.

وما أحدثته هذه الحملة من ذعر وخوف لدى الإمبراطور البيزنطي الجديد قسطنطين الرابع (668-685م) نتائج بعيدة الأهمية في السياسة البيزنطية برا وبحرا. إذ تخلى أباطرة بيزنطة عن مشاريع طرد المسلمين من الشام ومصر القديمة، ووجهوا عنايتهم إلى تقوية وسائل الدفاع عن العاصمة البيزنطية، والطرق البرية والبحرية المؤدية إليها. وأحدثوا تغييرات جوهرية في النظم الإدارية للإمبراطورية بهدف إقامة خط دفاعي فعال تحسبا لأي غزو إسلامي جديد.

و كان محور سياستهم الجديدة في إقليم آسيا الصغرى، الذي غدا بعد ضياع الشام و مصر أهم مورد تستمد منه بيزنطة الجند القادرين على القتال والأموال اللازمة لتجنيد جيوشها وتعبئة أساطيلها للدفاع عن العاصمة . وقد عرف هذا بنظام الأجناد أو البنود ، بحيث تم توزيع فيالق من الجيش *The mata* على جهات يعسكر فيها بصفة دائمة <sup>(80)</sup>، ومنح الجند في هذه الجهات إقطاعات تشجيعا لهم على الاستقرار .

وقسمت آسيا الصغرى إلى أقاليم حرية يقيم بكل منها فيلق من الجيش، يجمع قائده بين مهام الإشراف على جنده و أعباء الحاكم المدني <sup>(81)</sup> . وأقيمت في الجهات الساحلية لبحر مرمرة فرق بحرية *Peratie theme* لصد سفن المهاجمين عن العاصمة، في حين استقر في جهاته الداخلية فرق من الخيالة *Cavallarii* لعرقلة الزحف البري .

وأهم بند تبلور نشاطه بعد آخر حملة أموية على القسطنطينية، هو بند "كبير" *Kibyrrhaitoi*، الذي اشتمل على الجهات الساحلية من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه، حيث استمدت الإمبراطورية البيزنطية منها خيرة بحارته و أساطيلها. ولذا ظهر نشاطه المبكر أثناء سير السفن الإسلامية بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه لمعاونة الحملات الإسلامية البرية لإحصار القسطنطينية .

و لما تزايد النشاط البحري الإسلامي، اتسع نطاق هذا الإقليم ، وقسمته الإدارة البيزنطية إلى قسمين. الأول: يظم الجهات الساحلية والجنوبية والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى، و احتفظ بالاسم القديم "بند كبير". أما القسم الثاني: فغدا بندا بحريا جديدا يضم جزر بحر إيجه و يعرف بالبند "الإيجي".

و كان لكل بند منهما أسطول خاص عليه أمير بحر يشرف عليه يعرف ب *Drungarius*، و في نفس الوقت يخضع الأميران لقيادة أمير البحر العام للأسطول المركزي بالقسطنطينية، الذي ينظم شؤون الدفاع عن العاصمة ويرسم الخطط البحرية <sup>(82)</sup> .



أما الجانب الإسلامي فيبدو أنه صمم على تجديد غزو القسطنطينية، مستغلا حالة الفوضى والانكماش التي سادتها في هذه المرحلة<sup>(83)</sup>، ومستثمرا ما حققته الحملة الأولى من نتائج، وما تركته من حماس ورغبة في تكرارها.

وقبل أن يصوب معاوية الضربة القاضية إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، مهد لها بعمليات بحرية سيطر من خلالها على سلسلة من الجزر المهمة والمواقع الإستراتيجية فاستولى على جزيرة "خيوس"، وتمكن أسطوله من اجتياز مضيق الدردنيل دون أن يلقي مقاومة من البيزنطيين، إذ كانت البنود البحرية لا تزال في دور التكوين.

وتمكن أحد قادة الأسطول الإسلامي من الاستيلاء على جزيرة "أرواد" *Cyzicus* التي لا تبعد إلا قليلا عن القسطنطينية (84) فأصبحت بذلك قاعدة المسلمين المهمة لمهاجمتها.

وفي نفس الوقت استولى جانب من الأسطول الإسلامي على "أزمير"، بينما احتل الجانب الآخر "بيكيا" و"قليقية"، وتعرضت كريت للهجوم في نفس السنة (85).

و يصف العدوي الحصار البري والبحري على القسطنطينية الذي اشتركت فيه سفن مصر وسورية بقوله: ((فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من جزيرة كزيكوس (أرواد) إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين "رأس هبدمون" *Hebdomon* التي تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة، وبين رأس كيكليبيوس *Kyklobios* الواقعة من باب الذهب))<sup>(86)</sup>.

واستمر الحصار سبع سنوات (54-60 هـ / 674-680 م)، فتعرضت القسطنطينية خلالها كل ربيع وصيف للحصار تتخله مناوشات بين سفن المسلمين والبيزنطيين، على حين تترشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على



أسوار المدينة بالقذائف و السهام . ولكن فشل هذا الحصار الطويل، و عاد الأسطول الإسلامي أدراجه دون أن يحدث ثغرة في أسوار القسطنطينية ينفذ منها.

و لعل الأسباب التي مكنت بيزنطة من عدم الانهيار في هذه الفترة موضوعية إلى حد ما. فالقسطنطينية لم تكن في موقع مكشوف، بل كان يحميها بحر الأرخبيل و جزائره و أرخبيله، كما حماها بحر مرمره و البحر الأسود<sup>(87)</sup>. فرغم الحصار الطويل فإن الطرق البرية و طريق البحر الأسود ظلت مفتوحة، فكانت تصل منها إلى العاصمة المؤمن والإمدادات<sup>(88)</sup>. هذا إضافة إلى حصانة المدينة وموقعها الجغرافي، وطبيعة التيارات البحرية التي تحيط بجهااتها الساحلية مما يعيق وصول السفن إليها.

غير أن مؤرخي الدولة البيزنطية يجعلون من ابتكار البيزنطيين ل سلاح سري هو النار الإغريقية أو " النار البحرية " و استخدامه ضد الأسطول الإسلامي هو السبب الرئيسي في نجاة قلعة الروم الحصينة و خلاصها.

و هذه النيران عبارة عن مخلوط كيمياوي قابل للانفجار، ويجري قذفه بأنابيب خاصة، فإذا احتك بسفينة العدو اشتعل و احترق . ومن خصائص هذه النيران أيضا أنها تشتعل في الماء. و يعود فضل اختراعها إلى مهندس اسمه "كالينيكوس" *Callinicus* ، أصله من شواطئ هليوبوليس بالشام، هاجر إلى القسطنطينية عندما سقط هذا الإقليم في يد المسلمين، وكان ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء و تمكن أن يصل إلى اختراعه في الفترة التي كان المسلمون يحاصرون فيها القسطنطينية. مما جعل الساسة البيزنطيين يتلهفون عليه و يستخدمونه في الدفاع عن عاصمتهم .

و ظل تركيب هذه النيران مكتوما مدة طويلة و حكرا على الدولة البيزنطية إلى نهاية القرن العاشر ميلادي،<sup>(89)</sup> لما حققته من فائدة و ما أحرزته من انتصارات بحرية عديدة. إذ لما استعمل ضد المسلمين تعرضت سفنهم للحرائق و وقع الاضطراب



بينهما، فانطلقت في شيء من الفوضى إلى بحر الأرخبيل وارتحلت سنة (59هـ / 679م) راجعة إلى موطنها، غير أنها تعرضت لعواصف شديدة أثناء سيرها نحو الجنوب اتجاها ساحل "بامفيليا"، ولم يصل من هذا الأسطول الضخم إلى قواعد بالشام سوى سفن قليلة العدد.<sup>(90)</sup>

وفي نفس الوقت لم يحقق العرب انتصارات حاسمة في الحروب البرية بآسيا الصغرى رغم ما أحرزوه من تقدم. وكان معاوية بحاجة إلى هدنة مع البيزنطيين من أجل التفرغ للشؤون الداخلية للدولة والبيت الأموي على الخصوص، بعد أن أحس بدنو أجله، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرباطة أمام القسطنطينية، خاصة وأنه يريد أن يترك لولي عهده يزيد دولة مستقرة، وهو يدرك أن بيعته ستلقى مقاومة فعالة. فرأى أن الحفاظ على الخلافة في البيت الأموي تستدعي وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرف الخليفة الجديد يزيد بن معاوية.

وفي المقابل كانت الدولة البيزنطية تتلهدف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية. فجرت المفاوضات بين معاوية والإمبراطور البيزنطي، انتهت بعقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة<sup>(91)</sup>. على أن يدفع معاوية جزية سنوية للدولة البيزنطية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وأن يرسل إليها كل سنة خمسين عبدا وخمسين حصانا<sup>(92)</sup>.

والملاحظ أن فشل المسلمين في دخول العاصمة البيزنطية كانت له نتائج بعيدة المدى، لا تقل سلبية عن هزيمة المسلمين في معركة "بواتيه" سنة 114هـ / 732م، وما نجم عنه من توقف الزحف الإسلامي على الغرب الأوربي<sup>(93)</sup>. إذ ترتب على صمود القسطنطينية إزاء الهجوم الإسلامي أن توقف زحف المسلمين وانتشار الإسلام في الجبهة الشرقية لأوروبا.



### الهوامش :

- 1- أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، بيروت، 1968، ص 203
- 2- عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، 1970، ص - ص 101 - 103
- 3- سالم (السيد عبد العزيز) والعبادي (أحمد مختار) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1969، ص 15
- 4- عبد الرحمن زكي: العمارة العسكرية في العصور الوسطى، المجلة التاريخية، المجلد السابع، 1958، ص - ص 106 - 122.
- 5- ابن عبد الحكم (ت 257هـ / 871م) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها: القاهرة ليدن، 1967، ص 68
- 6- السيد سالم عبد العزيز: المرجع السابق، ص 15
- 7- حسن (إبراهيم حسن) وحسن (علي إبراهيم) النظم الإسلامية، ط 1 مكتبة النهضة المصرية 1358هـ / 1939م، ص 246
- 8- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1978 ج 2، ص 377 - وانظر أرشيبالد (لويس) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال، طبعة القاهرة 1981، ص 20
- 9- عبد العزيز الثعالبي: خلافة الصديق والفاروق، تحقيق صالح الخرفي، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط 1 1418هـ / 1998م، ص 298.
- 10- ((وكان العلاء باري سعدا لصدع صدعه القضاء بينهما، فطار العلاء على سعد في حروب الردة بالفضل، فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة عن الدار، وأخذ حدود ما يلي السواد استعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء. فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئا، ولم ينظر فيما بن الطاعة والمعصية)) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت 310هـ) تاريخ الأمم والملوك، 5 أجزاء ط 1، دار الكتب العلمية بيروت 1407هـ، ج 2 ص 498.
- 11- الطبري: نفس المصدر، ج 2 ص 517.



- 12- إبراهيم العدوي: الأمويون و البيزنطيون - البحر المتوسط بحيرة إسلامية - الدار القومية للطباعة و النشر 1963 ص 81.
- 13- ابن خلدون: المقدمة ، ص 242.
- 14- وهي ليست قبرص و لكنها جزيرة أرواد القريبة من حمص.
- 15- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصر ، دار الكتاب دار البيضاء ، ط 1997 ، ج 1 ص 94.
- 16- الطبري : ج 2 ص 600 .
- 17- الطبري : ج 2 ص 600 ، وانظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، مطبعة السعادة مصر 1371 هـ / 1952 ، ص 155 .
- 18 - ابن الأثير : نفس المصدر ، ج 3 ص 48 ، الطبري ، ج 2 ص 601 ، الاستقصاء ، ج 1 ص 94 .
- 19- الخطط المقرية : ج 1 ص 286 ، و السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة مصر ، ط 1327 هـ ج 1 ص 57
- 20- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1403 هـ ، ص 134 .
- 21- العدوي (أحمد إبراهيم) الأمويون و البيزنطيون - البحر المتوسط بحيرة إسلامية - الدار القومية للطباعة و النشر 1383 هـ / 1963 م ص 83
- 22- محمد الأمين بلغيث : الربط بالمغرب الإسلامي و دورها في عصر المرابطين و الموحدين رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1987 ، ص 13 ، و انظر فتوح البلدان ، ص ص 134 135 .
- 23- السيد سالم عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ص 16 - 17 .
- 24- وهي قواعد عسكرية و مدن مزدهرة تقام على تخوم الإمبراطورة لأهداف عسكرية ضد الكفار ، راجع :

Lucien Golvin ; Note sur le mot ribat (terme d'Architecture et son interprétation en occident musulman, Revue de l'occident musulman et e la Méditerranée p97.



- 25- (( فكانت بيروت مثلاً ربا كل من أبي الدرداء عويمر الأنصاري ، و سلمان الفارسي و عبد الملك بن أبي ذر الغفاري في خلافة عمر بن الخطاب )) راجع د. بلغيث : الربط، ص 13.
- 26- تاريخ البحرية ، ص 17.
- 27- إبراهيم أحمد العدوي : المرجع السابق ن ص 18.
- 28- أحمد علي إسماعيل : التعبئة العسكرية في صدر الإسلام و العهد الأموي، دار الشورى ، بيروت، ط 1 1982، ص 11.
- 29- ابن الأثير : نفس المصدر ، ج 3 ص 48 ، الطبري ، ج 2 ص 601 ، الاستقصا ، ج 1 ص 94.
- 30- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية و حضارتها في العصر الإسلامي ، القاهرة ، ط 1961، ص 43.
- 31- السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية (323-1081 م) دار النهضة العربية، بيروت، ط 1982، ص 139.
- 32- و صف ابن الأثير مشاعر الروم اتجاه الإسكندرية و اهتمامهم بها بقوله: (( إن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية، و ظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم... )) الكامل ج 3 ص ؟ واستغل قسطنز بعض الظروف قي الإسكندرية، فقد كان اشتداد عبد الله بن سعد في الضرائب قد دفع أهل الإسكندرية إلى مكاتبة قسطنز و الاستنجا به، مما شجعه على إجابة الطلب، خاصة انه علم أن حامية المدينة التي تركه العرب بها قليلة لا تتعدى الألف رجل، كما استغل عدم وجود أسطول إسلامي يحمي السواحل فأرسل قوة بحرية كبيرة لاستعادتها. راجع ، صفاء حافظ عبد الفتاح : الموانئ و الثغور المصرية ، من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 69 .
- 33- أحمد إبراهيم العدوي : الدولة البيزنطية و إمبراطورية الروم ، ص 61. نقلا عن العريني : الدولة البيزنطية، ص 141 .
- 34- محمد الأمين بلغيث : الربط ، ص 12.
- 35- عمر فروخ : تاريخ صدر الإسلام و الدولة الأموية ، ص 113.
- 36- تاريخ الأمم و الملوك ، ج 5 ص 46.



- 37-4) (( فلم يزل المال متوفراً ، حتى لقد بعت الجارة بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار  
ن وبيع البعير بألف ، و النخلة الواحدة بألف )) انظر: ابن قتيبة ( أبو محمد عبد الله بن مسلم  
الدينوري ) ( توفي سنة 276 هـ ) : لإمامة والسياسة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ،  
ط 1388 هـ / 1969 م ، ج 1 ص 27 .
- 38- علي حسن الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص 60 .
- 39- حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص 247 .
- 40- فتوح البلدان ، ص 159 .
- 41- فليب حتي : الإسلام منهج حياة ، تعريب عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ،  
ط 1972 ، ص 165 .
- 42- الخربوطلي : المرجع السابق ، ص 61 .
- 43- سالم عبد العزيز : البحرية الإسلامية ، ص 18 .
- 44- أكرم ضياء العمري : عصر الخلافة الراشدة ، مكتبة العبيكان الرياض ، ط 1998 ص 379 .
- 45- جاك رسلر : الحضارة العربية ، تعريب خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات بيروت ، باريس ،  
ط 1993 ، ص 48 .
- 46- أحمد إبراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص 90 .
- 47- ( منهم أبو ذر و أبو الدرداء و عباد بن الصامت .. ) انظر ، أحمد السيد دحلان : الفتوحات  
الإسلامية ، ج 1 ص 100 .
- 48- ابن الأثير ، ج 3 ص 48 . الدمشقي ( عبد الحي بن أحمد ) شذرات الذهب ، دار الكتب  
العلمية ، ج 1 ص 36 .
- 49- أحمد إبراهيم العدوي : المرجع السابق ، ص 92 93 .
- 50- أنور الرفاعي : النظم الإسلامية ، دار الفكر ، بيروت ، ط 1392 هـ / 1973 م ، ص 157 .
- 51- (( تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التي تقع بالقرب من القسطنطينية والتي تعرف باسم  
كريكوس Cyzic في المراجع الأوربية ، وقد لاحظ الجغرافي اليوناني القديم الذي زار مصر سنة  
25 ق م أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منهم )) راجع ،  
العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، هامش ص 95 .



- 52- العدوي : نفسه ، ص 96 .
- 53- و تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على بعد اثني عشر ميلا تقريبا من ساحل آسيا الصغرى ، انظر فتوح البلدان ، ص 344 .
- 54- ذكرها الخربوطلي سنة 30 هـ ، وذكرها السيد دحلان سنة 53 هـ ، ولكن سياق الأحداث بين أنها فتحت قبل معركة الصواري ، بل أنها كانت سببا لهذه المعركة . انظر ، الخربوطلي ، ص 61 ، والسيد دحلان ، ص 100 .
- 55- ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص 170 .
- 56- محمد الأمين بلغيث : الربط ، ص 15 .
- 57- البلاذري : فتوح البلدان ، ص 224 . راجع ترجمته في صفوة الصفوة ط 1979 ، ج 1 ص 208 .
- 58- العدوي : المرجع السابق ، ص 102 .
- 59- كان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية .
- " الأولى : أساطيل تابعة للأقاليم و المقاطعات الخاضعة للدولة البيزنطية ، وكانت جزر بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى العمود الفقري في نظام أساطيل الولايات الثانية : أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها . وكانت أساطيل الأقاليم موزعة بحيث تقوم قدر طاقتها أية غارة مفاجئة على أرض المقاطعات التابعة لها ، أو عرقلة أي حملة كبرى معادية قاصدة العاصمة حتى تأتي النجيدات من أسطول القسطنطينية الرئيسي " العدوي ، ص 102 .
- 60- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت ، 1984 ، ص 125 .
- 61- العدوي ، ص 103 .
- 62- نفسه ، ص 101 .
- 63- السيد أحمد بن دحلان : الفتوحات الإسلامية ، المطبعة الميمنية بمكة المحمية ، ط 2 1300 هـ ، ج 1 ص 102 ، وانظر الطبري ، ج 2 ص 219 ، ابن الأثير ، ج 3 ص 58 ، ذكرها في حوادث سنة 31 .
- 64- النظم الإسلامية ، ص 248 .



- 65- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 3 ص 14، الطبري، ج 2 ص 220.
- 66- ويروي ابن الأثير لما وصل إلى صقلية ((فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا : أهلك النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه، وتركوا من معه في المركب وأذنوا لهم بالمسير إلى القسطنطينية )) راجع الكامل في التاريخ، ج 3 ص 58، والسيد دحلان: الفتوحات، ج 1 ص 102.
- 67- الطبري، ج 2 ص 620، أعلام النبلاء، ج 3 ص 34، النجوم الزاهرة، ج 1 ص 80.
- 68- تقي عثمان: الحدود البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج 2 ص 238، عن تاريخ البحرية، ص 19.
- 69- بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 125.
- 70- " انتصر قسطنطين سنة 658م على الصقالبة، و وقع الكثير منهم في الأسر، ونقل عدد كبير منهم إلى آسيا الصغرى " راجع العريني: الدولة البيزنطية، ص 143.
- 71- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، تعريب إحسان عباس، دار العلم للملايين بيروت ط 3 1979 ص 61.
- 72- بلغيث: الربط، ص 15.
- 73- البلاذري: فتوح البلدان، ص 124.
- 74- أحمد إبراهيم العدوي: الأمويون و البيزنطيون، ص 88.
- 75- سالم عبد العزيز: تاريخ البحرية، ص 19.
- 76- العدوي: المرجع السابق، ص 87.
- 77- العريني: المرجع السابق، ص 149.
- 78- (( لعل معاوية أراد من وراء ذلك إعطاء فرصة لابنه وولي عهده يزيد فرصة يعلو فيها مركزه، و لير على خصومه الذين امتعضوا من سعي معاوية في أخذ البيعة له بالخلافة بعده، و الذين اتهموا يزيد بحبه المجون و الخلاعة و عدم أهليته لتصرف شؤون المسلمين )) انظر الطبري: ج 3 ص 207، الكامل في التاريخ: ج 3 ص 317.
- 79- " و دفن بالقرب من أسوار القسطنطينية، و صار قبره شاهدا جذب أنظار المسلمين نحو عاصمة البيزنطيين، و نال تكريم المسيحيين المقيمين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجلب لهم الأخطار،



- و تعهدوه بالترميم والإصلاح . و قد اكتشف الأتراك موضع القبر عند حصار القسطنطينية عام 1453 م، و بنوا عنده مسجدا . و أصبح أبو أيوب وليا عند المسلمين والبيزنطيين و الأتراك " انظر : كتاب الأغاني، ج 16 ص 33 ، و العدوي ، ص 165 .
- 80- العدوي: الأمويون و البيزنطيون ، ص 169 .
- 81- نفسه ، ص 171 .
- 82- نفسه ، ص 172 .
- 83- السيد الباز العريني : المرجع السابق ، ص 149 .
- 84- العريني : المرجع السابق ، ص 149 .
- 85- يذكر الكندي: (( أن ما قام به البيزنطيون من هجوم على الدلتا بمصر ف هذه السنة ، (53 هـ / 673 م) ، كان ضئيل الأهمية )) راجع الولاة و القضاة ، ص 38 .
- 86- الأمويون و البيزنطيون ، ص 173 .
- 87- ارشبياد لويس : القوى البحرية و التجارية، ص 21 .
- 88- العريني : المرجع السابق ، ص 150 .
- 89- " تناول كتاب في القرن العاشر الميلادي وصف العناصر التي تكونت منها هذه النار و وسائل إخمادها، فذكر أحدهم: (( إذا أخذت كبريت نقي مع حامض الطرطريك و الصبغ الفارسي و القار الخام و الترات ، ثم مزجت الخليط معا غمست في هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب في الحال . و يطفى هذه النار الرمل فقط أو الخلل )) انظر،
- Bury , j. b a history of the later roman empire ., London 1889. 1931 p 319
- And Aman , ch. a history of the war in the middle ages . 1924 p , p 46 47 .
- 90- العريني : المرجع السابق ، ص 150 .
- 91- العدوي : الأمويون و البيزنطيون ، ص 175 .
- 92- السيد الباز العريني : المرجع السابق ، ص 150 .